الأدب فى سير أعلامه :

٢ ـ تولســـتوى . . . !

[قمة من القمم الشوامخ فى أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه]

للأستاذ محمود الخفيف

طفولة ونسب

دخل ابو حجرة الدراسة وأسلم إلى مرب يعلمه ويقوم على تنشئته ، وكان هـذا المربى ألمانى الجنس وهو تيودور رويـل ، وكان من عادة سراة الروس أن يختاروا لأبنائهم مربين من الأجانب ليعلموا هؤلاء الأبناء اللغة الأجنبية التى تراد لهم وهم صغار وذلك بالحوار والمرانة لا بالقراءة فى الـكتب فحسب ، ولقد كان تيودور رويل هـذا من الشخصيات التى تأثر بها الصبى تأثراً شديداً منذ دخل حجرة الدراسة ، والتى ظل أثرها عالقاً بنفسه مدى حياته الطويلة ؛ إذ كان المربى مستقيم الخلق كريم الطبع عطوفاً على تلميذه فى غير ضعف ، شديداً عليه فى غير عنف ، مخلصاً فى عمله إذا هم بأداء واجب ، ولا يبخل بجهد يرى فيه صلاح تلميذه مهما أرهقه هذا الجهد ، وبهذه الصفات الطيبة أو بهذه القدوة الحسنة أثر المربى فى تلميذه وهيأ الجو الصالح لنمو الصفات الطيبة فى نفس ذلك الصبى …

فإذا انطلق الطفل من حجرة الدراسة كانت العمة تاتيانا أول من يلقى فما يطيق البعد عنها ، وإن حبه إياها ليصغر دونه كل حب ، وإن أثرها فى نفسه ليقل عنده كل أثر ، وسيكبر الصبى ويخرج من نطاق البيت إلى مضطرب الحياة ويظل أثر العمة تاتيانا قوياً فى نفسه ، ويظل شخصها حياً فى حسه ، وتظل صورتها ماثلة فى خاطره . وسيعبر عن هذا كله فيما يتناوله قلمه من ذكريات الحياة ومشاهدها . نجد مثلا لذلك فى قوله : « إنى لأتذكر ذات يوم وأنا ابن خمس كيف اندسست خلف أريكة كانت تجلس عليها فى الثوى ، وكيف مدت إلىّ يدها ومست جسدى فى حنو ورفق ، وكيف أمسكت بيدى تلك اليد وقبلتها

فكان لا يرضيني هذا التزمت فى الأدب الذى تفرضه أبحاث العلامة الكرملى ومناقشاته ، فقد كان يحاول دائما أن يضع للأدب مقاييس وقيوداً وحدوداً لا يتعداها ولا يرى فى الانطلاق والتحرر إلا خروجا وخطأ وجريمة … وكان تفكيره الرتيب الذى جاء نتيجة دراساته الجافة لا يسمح له بالتجوال إلا فى آفاق محدودة ودوائر خاصة لا يتعداها ولا يسمح لنفسه بالخروج منها . ولذا كان لا يستسيغ هذا اللون من الأدب الحديث الذى برع فيه ناشئة الأدب فى البلاد العربية وتحرروا فيه من قيود الماضى وانطلقوا يكتبون فى أجواء حرة وأساليب حديثة .

لم يكن الكرملى أديبا خلاقا أو باحثا مبدعا ، ولم يترك له أثرا فى الحياة الفكرية فيه هذا اللون المشرق الذى يغذى العواطف ويهز القلوب ، ويفتح كوى مشرقة فيها أضواء وأخيلة وأنداء وجنائن مسحورة يعبق جوها بالأمانى والأحلام تترك الشعور يحلق فى متاهات بعيدة وآباد مجهولة فيها أمواج من النعيم وسحر غريب له لذة وفيه نشوة ، كما تشاهد فى أدب الزيات وطه حسين والحكيم وغيرهم من أساتذة اللغة والبيان .

إن عبقرية الكرملى وإشراق ذهنه فى اللغة العربية وتاريخها ودراسته المتصلة للغات القديمة والحديثة ونشاطه المعروف فى التتبع والبحث والتأليف لو أضاف إلى كل ذلك إشراق العبارة وذهنية تشرك عقلها وقلبها فيما تنتج وتفكر لعد من العباقرة الخالدين فى الأدب العربى . ولكن هذا التحنيط والجمود فى أسلوبه قلل من أثره فى الحياة الفكرية وجعله أشبه بمعجم لا يراجع إلا عند الحاجة إليه .

إن اسم (الكرملى) سيخلد فى مجامع الشرق والغرب كعلم من أعلام اللغة والدين والفلسفة خدم بتتبعه لغة العرب وترك فيها آثارا عديدة ونور عقولا وأذهانا ؛ وكان فخر أمته ، وعقلا عبقريا من عقولها فى الخارج .

بغداد　　　　مهدى فرزند

ودموع الحب فى عينى ... لقد كان للعمة تاتيانا أعظم الأثر فى حياتى ، فمنذ الطفولة الباكرة علمتنى كيف تكون بهجة النفس فى روحانية الحب ، واقد علمتنى هذه الفرحة لا بكلامها فحسب بل إنها ملأتنى حباً بكيانها كله . لقد رأيت واقد أحسست كيف كانت تمتع نفسها بنعمة الحب ، ومن ذلك فهمت بهجة الحب ، وهذا أول ما علمتنيه . ثم إنها بعد ذلك علمتنى نعيم الحياة المطمئنة الهادئة » .

وحق له أن يحب هذه السيدة التى يدعوها عمته كما يفعل إخوته والتى تقوم منهم جميعاً مقام الأم وقد حرموا من أمهم . وكان ليو منذ صغره مرهف الحس متقد العاطفة تأسره الكلمة الطيبة وتثيره الكلمة القاسية فما يملك أن يحبس دمعه . وعرفت عمته تاتيانا كيف توحى إليه ما تحب من المعانى العاطفية ...

وليس يذكر ليو أمه فقد ماتت وهو دون الثانية بقليل ، وكانت سيدة كريمة المحتد نبيلة الخلق عالية الثقافة ، نقية رحيمة القلب مرهفة الحس مهذبة الذوق ، تتكلم خمس لغات ولها بالموسيقى شغف عظيم ولها مقدرة ملحوظة فى العزف على البيان ، وموهبة فى سرد القصص جعلت لها شهرة عظيمة فى هذا الباب حتى لقد كانت فى حفلات الرقص تجتذب إليها كثيرين ممن يفضلون أن يستمعوا إليها على أن يشهدوا ما يدور فى تلك الحفلات ، وكان الطفل يستمع إلى سيرتها فى اهتمام كلما تحدث عنها الخدم أو تحدثت عنها العمة تاتيانا ، فتقوم فى ذهنه صورة لها تطمئن لها نفسه ويبتهج فؤاده ، وتظل هذه الأحاديث تهجس فى خاطره فتزداد صورة أمه وضوحاً فى نفسه كلما تقدم به العمر فاذا كتب عن أمه غدا فيما يكتب قال : « لست أذكر أمى ؛ لقد كنت ابن سنة ونصف حين ماتت ، وبسبب مصادفة عجيبة لم تحفظ لها صورة ، وعلى ذلك فلا أستطيع أن أرسم فى خيالى صورتها المادية . وإنى لفرح بهذا من وجهة نظر هى أن ما يقوم بذهنى لها إذ أتصورها إنما هو صورتها الروحية ، وكل ما أعلمه عنها من هذه الناحية جميل ، وأظن أن ذلك لم يكن مرده إلى أن من يتحدثون عنها لا يذكرون لى إلا الخير وإنما كان مرده إلى أن نفسها كانت تنطوى على كثير من الخير حقاً » .

ويبقى فى ذاكرته من أحاديث الناس عنها الشىء الكثير ، ولكنه معجب بصفة من صفاتها يراها خير الصفات جميعاً ويشير إلى ذلك فى قوله « إن أرفع خلالها قيمة هى أنها كانت على حرارة مزاجها وسرعة تأثرها تضبط نفسها أبداً ، ولقد يحمر وجهها واقد تبكى كما أخبرتنى خادمتها ولكنها لا تلفظ قط لفظة نابية بل إنها لا تعرف واحدة من تلك الكلمات » ، ويقول عنها كذلك « إنها كانت تبدو فى خيالى مخلوقاً علوياً روحياً طهوراً وبلغت من ذلك حداً جعلنى فى الحقبة الوسطى من عمرى إبان جهادى ضد المغريات والوساوس القاهرة أتجه إلى روحها مصلياً مبتهلا إليها فى صلواتى أن تأخذ بيدى . ولقد كان لى فى أكثر الأحيان فى هذه الصلوات كثير من العون » .

ذلك أثر أمه فى نفسه وإن لم يرها ، أما أبوه فقد كان يحس ليو طيب قلبه وشدة عطفه على أبنائه ، وكان يحب قصصه التى يتلوها عليهم أثناء الطعام كما كان يراه رفيقاً بهم لا يمنعهم على زياطهم ولا يضيق بهم إذا دخلوا عليه حجرة مكتبه ؛ وكان يعجب ليو بوجاهة أبيه وأناقة ملبسه إذا تأهب للذهاب إلى المدينة ، وبمهارته ونشاطه وجمال طلعته إذا خرج للصيد . وكم كان ينظر إليه فى إعجاب ومحبة وهو جالس فى مركبته وحوله عن قرب خدمه وكلاب صيده ... كم كان يداخل الطفل شعور الإعجاب به لما يرى من هيبته ؛ واستطاع خياله الناشئ واستطاعت عيناه الصغيرتان أن تنفذا إلى سر تلك الهيبة وهو احترام الرجل نفسه وصونه كرامته فما يطأطىء أبوه رأسه أو يخفض صوته أو يغير لهجته لدى أى كبير من الحاكمين مهما علا مقامه ؛ ثم إنه يفطن إلى معنى آخر يحبب أباه إليه ، وذلك أنه على ترفعه واستكباره أحياناً على مزارعيه ، يعطف عليهم فلا يرضى لهم بالعقوبة البدنية ولا يحب أن يرهقهم بالعمل ، فإذا حدث لهم شىء من ذلك كان على غير علم منه وإذا علم بشىء منه نهى عنه واشتد فى النهى وأخلص فيه .

وسيرث ليو صفات أبيه فيكون عطوفاً رؤوفاً يكره العنف على الزارعين ويحب أن يعلمهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور ؛ ولكنه كذلك سوف ينشأ معتداً بذاته كثير الإعجاب بنفسه سريع الميل إلى ازدراء غيره ، ومهما حاول التغلب على تلك النزعات فى طبعه غلبته على أمره فى كثير من المواقف فيزهى ويتكبر ولا يقوم فى نفسه إلا شعوره بما نشأ فيه من أيامه من دلائل العظمة والثراء وعراقة الأصل ، وحسبه أن ليس هناك فى ياسنايابوليانا وما حولها قوم لهم السيادة والجاه منذ عهد بطرس الأكبر إلا آل تولستوى ...

وأحب ليو إخوته حباً شديداً وأحب اللعب معهم كلما أطلقهم المربى من حجرة الدراسة ؛ أحب أكبرهم نيقولا لأنه يملم كل شيء ولأنه عطوف عليه مرح فكه الحديث ، يراه ليو لايبارى فى سرد الحكايات والقصص الجميلة وفى رسم الصور المختلفة الأشكال والألوان ، وأحب سيرجى لوجاهة منظره وأعجبه منه حبه الغناء واللهو وكبرياؤه وعدم مبالاته بما عسى أن يقول عنه القائلون ؛ أما ديمترى وهو أقرب الثلاثة إليه سناً فكان يأنس بهدوئه وابتسامته الحلوة وعاطفته الرقيقة ...

وكانت من أحب الألعاب إليه تلك اللعبة التى ابتكرها نيقولا ؛ فقد أسر إليه أنه اهتدى إلى نوع من السحر يستطيع به أن يجعل الناس جميعاً على ظهر الأرض أحباباً بعضهم لبعض ، وأن سحره هـذا منقوش على غصن أخضر دفنه فى مكان ما بالقرب من موضع حدده لهم ، ثم دعاهم إلى الجلوس معاً جنباً إلى جنب فى بقعة صغيرة يظللهم سقف واحد كما تفعل النمل لتكون لهم مثل أخوة النمل ومحبة جماعاته ، فأقبلوا حيث جلسوا تحت غطاء من القماش وضعوه على بعض الكراسى وتلاصقوا هنا وهناك فى تعاطف ومودة ، وأخذ يحدثهم نيقولا أنه بالحب المشترك المتبادل يستطيع الناس أن يكونوا إخوة ، وهكذا صارت هذه اللعبة من أحب الألعاب إلى الأخوة ؛ ولكم تجمعوا تحت خوان أو فى ركن من الأركان ومثلوا أخوة النمل ، وأحدثت اللعبة أثرها فى خيال ليو ووجدانه فقبل أن يبلغ السادسة من عمره يستقر فى نفسه حلم لذيذ عن عالم جديد يرتبط فيه الناس بعضهم ببعض برباط الحب والمودة حتى يصبحوا بذلك إخوانا ...

استقر هذا الحلم فى نفس الطفل وهو دون السادسة وما زال مستقراً فيها حتى بعد أن جاوز السبعين من عمره فقد كتب إذ ذاك يذكر ذلك الحلم فقال : « إن ذلك المثال وهو أخوة النمل وتعلقنا بعضنا ببعض متحابين بقى قائماً فى نفسى لا يتغير وإن لم يعد كما كان أمس تحت قماش يظلل كرسيين عاليين فهو اليوم عندى تعلق البشر بعضهم ببعض متحابين تحت غطاء عظيم هو قبة السماء ، وكما صدقت يومئذ أن هنالك عصاً صغيرة خضراء نقشت عليها تلك الرسالة التى تمحق الشر كله فى نفوس الناس وتهيىء لهم السعادة التامة فكذلك أعتقد اليوم أن هذه حقيقة ممكنة وسوف تتكشف للناس وسوف يمنحهم كشفها كل ما تعدهم به من سعادة » .

ولقد أوصى تولستوى فيما بعد أن يدفن حين يموت حيث دفنت تلك العصا الخضراء ، فى تلك البقعة التى صارت حبيبة إلى قلبه من أجل ذلك الغصن الأخضر الذى أوحى إلى نفسه أن يتحاب الناس جميعاً ويتآخوا على نحو ما تنطق به قصة أخيه ؛ ولقد دفن فملأ الكاتب العظيم فى الوضع الذى عينه أخوه مثوى للغصن الأخضر وذلك بعد ستة وسبعين عاماً من قصة ذلك الغصن !

وحدثهم نيقولا حديثاً آخر أبهج نفوسهم الصغيرة وملأها شوقاً وتطلعاً وذلك أنه سيقودهم إلى تل ما وسيبلغ بهم قمته ، فاذا بلغوها وطلبت نفوسهم أى شيء فلا يلبثون دون أن يكون بين أيديهم ، ولكنه لن يقودهم إلى ذلك التل إلا أن يجيبوه إلى ما يطلب إليهم أداؤه ، فعلى كل منهم أن يقف فى ركن فلا يتجه ذهنه لحظة إلى دب أبيض أى عليه ألا يخطر بباله هذا الدب ، وعليه أن يمشى مستقيماً على شق بين الألواح الخشبية فلا يميل ، ثم عليه أن يمتنع عاماً كاملا عن رؤية أرنب حى أو ميت أو معد للمائدة ، ومن أخـذ نفسه منهم بهذه الشروط فليقسم أن تظل سراً لا يفشيه إلى أحد .

وكم اتجه ليو بخياله ووجدانه إلى ذلك الغصن الأخضر يود أن يعلم ما نقش عليه من سحر ، وإلى ذلك التل العجيب يتوق أن يبلغ قمته ، وما علمه أخوه إلا أخوة النمل وإلا تلك الشروط التى لا بد من أدائها لمن يطمع أن يبلغ قمة التل ...

ويتطلع ليو إلى سيرجى يريد أن يكون مثله ، تحدثه نفسه إذا قارن بينه وبين نيقولا أنه يفضل أن تكون له وجاهة سيرجى ولو أنه معجب بأقاصيص نيقولا وسحره ونكاته ؛ وهو مولع بتقليد سيرجى فيما يعمل ، ولكنه يألم ألا يستطيع أن تكون له مثل وجاهته فلن يجدى فى ذلك تقليد ، وكانت وجاهة أخيه أحب صفاته إليه فما أشقاه أن تكون هى الصفة التى تستعصى عليه ؛ وإنه مهما حاكاه فى الغناء واللهو والاعتداد بالنفس فلن يزال يشعر بعدم الرضا إن لم يكن له ما لأخيه من حسن السمة وجمال الطلعة ؛ وثمة شيء آخر لا يستطيع ليو أن يحاكى فيه أخاه ، وذلك عدم مبالاة سيرجى بما عسى أن يقول الناس عنه ، فهو لم يكن يوماً معنياً بنفسه وإنما يسير على سجيته لا يشغل باله بالتفكير فى ذاته ، وقد خلق ليو على نقيض أخيه فهو بنفسه معنى منذ صغره ، عظيم الاهتمام بآراء الناس عنـه ، شديد الإحساس بذاته ، كثير الانطواء على نفسه ، وتلك خلة أتعبته منذ نشأته وستكون منبع كثير من متاعبه فى مستقبل الأيام .

(يتبع) **الخفيف**